اللغة الأنجليزية فى مصر

الأستاذ محمد محمود زيتون

اللغة الإنجليزية فى مصر — أو على حد تعبير وزارة المعارف — « اللغة الأوربية الأولى » — قد أصبحت غير ذات موضوع لأنها استنفدت جميع أغراضها ، وفقدت صلاحيتها ، فلا مناص من إلغائها ، لأنها أول معقل للاستعمار فى بلادنا سبق إلى الانهيار

وإذا كانت الظروف اليوم قد أتاحت لقادة الرأى فى مصر أن تعمل جاهدة على المطالبة بإلغاء وتحرير العقلية المصرية منها على أثر إلغاء معاهدة الذل والاحتلال ، واتفاقيتى القهر والاستعمار ، فإن لصاحب هذا القلم شرف السبق إلى الكتابة فى هذا الموضوع فى وقت كان الجهر فيه بهذا يعد ضربا من المجازفة

وكان ذلك فى ٣ يوليو سنة ١٩٤٨ يوم كانت جريدة « الإخوان المسلمون » اليومية ترفع لواء الحرية ، فى هذا المعترك الصاخب من الأفكار ، قلت يومئذ بالحرف الواحد :

« إن هذه اللغة قد دخلت مصر وستخرج منها وكأن لم تكن ، لأنها لم تهدف إلى التثقيف وتبادل روائع الأفكار وبدائع العرفان وإنما كان هدفها الحقيق هو إشاعة الذعر والخوف والفزع والهلع والذل والانكسار إلى غير ذلك من مترادفات « تحطيم الأعصاب » فى بلد لا يزال بخير وعافية كمصر

ونظرا لما حق لدينا من دراسة العلوم الاجتماعية ومن بينها « علم اللغة » وما لكل من تطورات وانحرافات ولهجات تبنت قوانينها الصارمة ، فإننا بالقياس إلى هذه القوانين نرى أن اللغة الإنجليزية قد أريد بها أن تشذ شذوذ أهلها عن قوانين اللغة فليست مسوح العلماء وقفانيز الساسة ، « إمعانا فى إحكام القيود والأغلال على الشعوب المستضعفة جميعا وفى آن واحد ، وتسويدا للإمبريالية فى بعضها على المدنية فى البعض الآخر ، فقد ظلت هذه اللغة تدرس فى مصر أكثر من نصف قرن منذ بدء الاحتلال وكانت لغة التدريس فى جميع المواد ماعدا اللغة العربية وما يتصل بها . »

ولقد فطنت الجمعية العمومية إلى أساليب الاستعمار الإنجليزى منذ فجر الحركة القومية ، فطالبت الحكومة فى مارس سنة ١٩٠٧ بجعل التعليم فى المدارس بالعربية ، وعلى ذلك الرأى اجتمعت الأمة الناهضة ؛ ولكن مما يؤسف له أن قام أحد أذناب الاستعمار فقال فيما قال :

« إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية لمحض رغبتها أو اتباعا لشهوتها ، ولكنها فعلت ذلك مراعاة لمصلحة الأمة .. » (١)

واستطرد يقول — وهو سامحه الله ممن وكل إليه زعامة هذه الأمة — « وإذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية وشرعنا فيه فعلا فاننا نكون قد أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبرى لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا فى الجارك والبوسطة والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة المختلفة التابعة للحكومة »

على أن الأمة الممثلة يومئذ فى الجمعية العمومية قد خذلت هذا الاعتراض بإجماع رائع هز أركان التاريخ وتبوأ مكانة من الحركة القومية

وعلى الرغم من هذا فإن هذه اللغة الاستعمارية قد مضت فى طريقها فى غفلة من سدنة القومية فاعتبروها « اللغة الأجنبية الأساسية » حتى كانت سنة ١٩٣٥ حيث ابتدع « ميخائيل وست » طريقته الأمريكية اليهودية التى بها وحد النطق على أسس خاصة . وذلك لتتحقق المساواة فى الاستعمار والاستذلال والاستغلال ولتكون العدالة شاملة فى الظلم عملا بالقاعدة المشهورة « إذا عم الظلم كان عدلا »

وما لبث الإنجليز — بفضل هذه البدعة الأمريكية — أن قذفوا بملايين الكتب المدرسية الإنجليزية إلى مصر والسودان وفلسطين والحبشة وجنوب أفريقية وأوغندة وكينيا وأستراليا والهند ، وبذلك ألغيت كل الحواجز الجمركية أمام هذه البضاعة الإنجليزية الموحدة فى هذه الأقطار ، فإذا نحن منذ ذلك التاريخ أمام تيار جارف من خرافات وأساطير وخزعبلات فرضوا علينا

(١) من عبد الرحمن الرافعى بك فى كتابه « مصطفى كامل »

أن تحشرها حشرا فى أدمغة الناشئين الأبرياء

يسأل التلميذ أستاذه : هل من المعقول أن (جاك) إذا قتل الدب وأخذ قلبه ورمى به فى النار تخرج حبيبته منها ! .. وهل صحيح أن (كاليبان) و (آريل) عفريتان من عفاريت (الجزيرة المسحورة) كما جاء فى رواية (العاصفة) التى دبجتها يراعة (شكسبير) ؟ ..

يابنى .. هذا كلام إنجليز ؛ وليس عليك إلا إن تتعلم اللغة ودعك من خرافاتهم . وهنا يريد المدرس الفيلسوف أن يشرح لتلميذ السنة الأولى « فلسفة التناسخ والحلول » الشائعة فى عقائد البرهمانيين والبوذيين . ولكن كيف يستطيع مدرس أن يشرح هذا اللغز الغامض لذلك الناشئ البرئ ! .. وهنا ينقضى كلامهما على حسرة ملحة ، وألم صارخ ، والأمر بينهما لله وحده

وهكذا أراد الإنجليز أن يغلفوا قلوبنا بطبقة من القطران الأسود المصنوع من خرافات الهمجية الأولى ، وبذلك تموت الروح الدينية ، وعقيدة التوحيد فى جوانح أبناء الأمة فيشب الواحد منهم كافرا بالله والرسل والأنبياء والملائكة واليوم الآخر ، كافرا بالمروءات والمثل العليا ومكارم الأخلاق متأثرا بدروس الكفر البواح التى يتلقاها فى مدارس الدولة

وليت هذا الناشئ المسكين يتعلم هذا الكفر فى كتاب واحد أو اثنين ، ولكن الدولة القيمة على العقل والروح والبدن تأبى إلا أن تغمر تلميذ السنة الأولى الإبتدائية بفيض من الكتب الأنجليزية بعضها رئيسى والبعض الآخر إضافى

وأذكر أن الوزارة كانت توزع على تلاميذ السنة الثانية سبعة كتب إنجليزية منها ثلاثة للعمل بها فى المدرسة ، والباقى للاطلاع الخارجى بالمنزل ، ويعلم الله أن هذا الاطلاع المزعوم ماكان له من وجود إلا فى خيال « ميخائيل وست » ومن يدورون فى فلكه من صنائع الاستعمار الثقافى

والنتيجة الطبيعية أن التلميذ لم يفتح كتب (العفاريت) إلى آخر العام حتى إذا بدأت العطلة صفى حسابه مع هذه الكتب وباعها مقابل عدة أقراص من النعناع والحلوى . وأما الدولة فهى التى دفعت لتجار الكفر وسماسرة الاستعمار دماء الفلاحين ثمنا لبضاعة كلها غش وزيف

وأساليب الاستعمار — على العهد — بها أعقد من حبل الثعالب وأضيق من شراك الصياد على فريستها ، فهى تصيد العقول والقلوب ؛ وتمتص الدماء وتستنزف الأموال ، وتقتل الأرواح وتشل النشاط وتحدر الأعصاب ، وتستأصل الحمية من الأنوف إلى غير ذلك من ضروب النصب والاحتيال

وليس أدل على ذلك من طريقة الامتحانات المتبعة فى مراحل التعليم : فى المرحلة الابتدائية يسهل على التلميذ اجتياز الامتحان لأن طرق وضع الأسئلة مرسومة محدودة ، ويكفى أن يحفظ التلميذ مفرداته المقررة عليه ، وأن يعرف كلمات الاستفهام وقواعد الزمن ليكون من الناجحين

وهذا التسهيل المفتعل ليس إلا خطة موضوعة تتبعها فى المرحلة الثانوية أسلاك شائكة وألغام فاتكة : ففى بدئها يرغم التلميذ على كتابة موضوعات إنشائية — ولم يتعلم قبلا تكوين جملة — ويرغم أيضا على الإجابة على أسئلة الأجرومية المعقدة — وكان محظورا عليه أن يعلم شيئا مطلقا من المصطلحات . فهو يتجرعها فى مدى أشهر . ممدودات وتكثر ضحايا الامتحان فى بداية هذه المعركة ، وتعود أساليب الاستعمار إلى قواعدها سالمة حسب الخطة المرسومة

وإذا جاز هذه المرحلة والتحق بالجامعة ، فإن صدمة عنيفة تجبهه عندما يحاول متابعة أستاذه فى شرحه بهذه اللغة فيسقط فى يده ولا يجد ما يستعين به على الدراسة التى تخصص لها إلا بعد مشقة وعناء

مراحل كلها صخور وأشواك ملقاة فى الطريق وعلى الجانبين لتوهم الناشئ بالضعف والنباء ، وتقذف فى نفسه الرعب والقلق والانكسار فتتحطم أعصابه ، ويتبلد ذهنه

وتعمد الوزارة كل سنة إلى تغيير الكتب الأنجليزية التى تدرس فيها طلبة الثقافة والتوجيهية . فما الحكمة من ذلك ؟ اللهم إنه ابتزاز أموال الدولة سنويا باسم العلم . وإلا فأى ضرر عقلى أو تربوى إذا استمر تدريس كتاب واحد بعينه لعدة سنوات ؟ وهل كتب المطالعة العربية المقررة أساءت إلى عقلية

التلميذ لمجرد استمرار تدريسها لسنوات عديدة ؟

أراد المستعمرون أن يؤخروا مصر إلى عصر ما قبل التاريخ حيث الهمجية الروحية والفكرية ، وهذا هو الوضع الذى جاز على مصر ولم تتنبه إلى خطورته ، ولولا بقية من إيمان ، وشماع من عقل « لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا »

وفى إبان الحرب الماضية كان الأساتذة الانجليز أنفسهم رسل دعاية للاستعمار فى مصر ، فهذا مستر سكيف رئيس قسم الأدب الانجليزى يبشر تلامذته من طلبة الآداب بأحسن وأروع ما كتب فى هذا الأدب قديمه وحديثه ، ذلك هو « خطاب من طيار لأمه » وقد تطوع بترجمته إلى العربية سعادة هيكل باشا ونشره الاتحاد الانجليزى المصرى

وكان مقررا على طلبة التوجيهية منذ سنوات مقالات عن « مشروع بيفردج » و « والتأمين الاجتماعى » و « الخدمات العامة » ولم يتكلف أحد من قادة الفكر وسادة الرأى عناء الاطلاع على ما يدرس للشباب وتبيان مدى ما ترمى إليه هذه الأفكار الوافدة ، ولم يمن أحدهم يوما بنقد ما يراد منه فتنتنا عما لدينا من تراث اجتماعى نستطيع به أن نجابه هذه الأفكار السطحية وندفعها بالحق . وهل الزكاة التى افترضها الإسلام عاجزة — إذا أحسن أداؤها — عن تعديل الأوضاع الاقتصادية وكفالة الأمن والسلام

وليس غلوا منا إذ نقول إن اللغة الإنجليزية وآدابها لا تصلح لأن تكون عاملا من عوامل التثقيف أو التهذيب فى مصر لأنها تقوم على مبادئ هدامة نذكر منها : فرق تسد — تمسكت فتمكنت — المصلحة أولا — اعمل بما أقول لا كما أفعل — حتى أنت يابروتس —

كل ذلك وما إليه إنما ينطوى على الدس والخبث والنفاق والمادية والأنانية والأولبية الأفعوانية ، وقد سبق لى أن قلت فى مقال « عصابة روتشيلد » (٢) بأن الانجليز هم الورثة القدين تبنوا اليهودية التى فككت أوصال أوربا فى القرن الثامن عشر كما سبق أن قلت إن هذه اليهودية تتمثل فى النزعة المادية وهى خاصية من خصائص لغة الانجليز كما وضحنا ذلك فى مقالنا عن « اللغة والفكر (٣) » حيث يقول الانجليز : pay attention أى ادفع انتباهها ويقولون pay a visit أى ادفع زيارة ، كأن الانتباه والزيارة نقود تدفع

ولو قدر لهذه اللغة البقاء فى بلادنا أكثر من ذلك بهذا الوضع وبتلك المكانة فإنها تسئ إلى نفسها أكثر مما تحسن إليها ، لأنها لغة أشاعت الذعر فى النفوس ، وسدت مسالك التفكير ، وضيقت من آفاق العقيدة ، وزعزعت من أركان الآداب السامية والأخلاق الفاضلة ، واستعبدت المدرسين حتى صاروا كالآلات الصماء حتى لقد استعاضت عنهم بالفونوغراف

وليس أمامنا الآن إلا خطوة عملية واحدة لرد اعتبارنا وحفظ كرامتنا كأمة ذات سيادة ، وهذه الخطوة هى ألا نجعل لهذه اللغة فى بلادنا أكثر من الوضع الذى صارت إليه بلادها ، فقد أصبحت انجلترا أفقر الدول بعد أن كانت أغناها ، وأصبحت ذيلا بعد رأس ، وصار لها فى بلادنا « سفير » بعد أن كان لها « مندوب سام » وأصبحت فى نظر العالم كله وباء ، وبلاء ، نلا أقل من أن تكون لغتها فى بلادنا كذلك شر بلاء وأخبث وباء

ومن العار أن يكون عدد حصص هذه اللغة أكثر من عدد حصص اللغة القومية . ومن العار أيضا أن نطالب بجلاء الجيوش الاستعمارية بينما أكبر أصنام الاستعمار فى مصر لا يزال حيا يعبد . ومن العار أن يتعطش شبابنا إلى معرفة مواطن البطولة فى تاريخنا المجيد ، فلا يجدون ما يروى غليلهم بينما تجرعهم فصص لغة لا يستسيغون لها طعما ولا لونا ولا رائحة

ومن موجبات حمد الله وشكره أن هذه اللغة لم تتمكن من جوهر حياتنا ولم تنجح فى أن تكون لغة تخاطب ولا لغة كتابة ... »(٤)

هذا ما قلناه بالحرف الواحد منذ شرعنا هذا القلم لهدم هذا الصنم الغليظ ، ولعل الحكومة الجاهدة تستطيع اليوم أن ترفع

(٢) الرسالة فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٥٠

(٣) الرسالة فى ٥ زائد ١٢ يونية سنة ١٩٥٠

(٤) الإخوان المسلمون : التاريخ المذكور